الصاعدون.. من دمائهم

عبدالله علوان

الصاعدون ... من دمائهم :

هـو عنوان أحدى قصائد الشـاعر الكبير عبدالله البردوني, وهي مودعة في ديوانه السابع [زمان بلا نوعية] .

والقصيـدة تنبنـي علـى عناصـر البناء الشـعري العربـي المعروفة , وهـي الوزن واللغة والفكرة الجمالية وأخيرا القافية .

فالقافيـة مـن المتـدارك [فاعلن] على نمط ابحروا , اسفروا , ازهروا , إستبصروا , اخضوضروا , أمطروا .....الخ

أمـا الوزن الشـعري , فيقـوم على البحر السريع :

مستفعلن , مستفعلن فاعلن

مستفعلن , مستفعلن فاعلن

مـع مـا يعتـري هـذا البحـر السـريع من زحافـات معروفـة عنـد علمـاء العروض وعلى هـذا البحـر تنبني اللغـة وهي لغة شـاعرية حالمة , ولكنها لا تحلم بالمحال , وإنمـا تحكي مـا كان حلما مسـرودا في التاريـخ وكيـف تحقـق ذلك الحلـم الذي كان تاريخيـا , أو كان مجـرد أفـكار تحكي النضـال الوطني فـي اليمن , وهـذه اللغة تفصـح عن فكـرة البعث بألفاظ إشـراقية مزهرة او قل بلغـة البردوني المبصرة التي تقتـرب من المفاهيم الماديـة , والروحية , وتقـول أمكانيـة , البعث العربـي كحتمية تاريخية – ثقافية وتجدده .

لغـة القصيـدة تقـول معانـي البعـث والنهوض والإشراق والاخضرار , وإمكانية الحيـاة بعد المـوت , أو إمكانيـة الصعود بعد التعثر أو إمكانية الإشـراق الحضاري بعد الغـروب , وهي تتناول حركة المقاومة الثوريـة مـن مواقـف متضـادة فهنـاك من سـبق وقـال , أنهـم ماتوا ولـن يبعثوا , وهناك من قال أنهم سـيبعثون من رفاتهم الحضـاري , وبين هذيـن الموقفين , يقف الشـاعر ليؤكـد حقيقـة البعـث , ولكـن برؤية شـعرية هـي الأخرى تسـتند على تاريـخ حركـة البعـث المعاصـر , فما كان مسـتحيلا أتـى مـن المحـال , ولكن ليس من اجل إعـادة بناء حضارتهـم القديمة , وإنما من اجل إسـقاط عوائق البعث وهذه العوائق هي دعـاوي أصحاب الموضة , أو المكذبيـن بالبعث ويقـوم إمكانية البعث العربـي الجديـد في ظـروف الاسـتعمار والاسـتيطان , وظـروف الحداثـة المدمرة هكذا يوجز الشاعر حقيقة الصاعدين من دمائهم :

كانوا زمانا مستحيلا أتى
من المحال , انفجروا , فجروا
ومن يقين الصاعد المفتدي
ثاروا على عنف الردى ثوروا
انهوا زمانا تحت موضاته
ينهار , لا ينسى , ولا يذكروا
كانوا صراعا بالنجيع ارتوى
روى , إلى أن أغصن الخنجر

جاء الصاعدون , من المحال , فثاروا على المـوت كفكرة مضـادة للبعـث , ولكن بعد مـا تفجـروا وفجروا كل ما يعيـق بعثهم أو نهوضهـم , فلقد كانـوا صراعا محضا ضد أعدائهم وصراعا ارتوى بدماء الثورة ودماء الثورة المضـادة إلى إن نبتت خناجرهم و أغصنت من ذلك الدم العربي الزكي .

المنهج الشعري :

القصيدة تقـوم على بنيان منهجي محكم , أو علـى منهج شـعري عريـق , ومحكوم بالتجديد و التقسيم والترتيب , و الاختيار

فقـد أختار الشـاعر موضوعـه الجمالي , ورتبـة في رأسـه ترتيـب الحكيـم لفصول حكمتـه وخططا لبنائـه وتقسـيمه كتخطيـط المهنـدس لبنـاء عمارتـه , ثم قسـمها إلى ثمانيـة وثلاثين بيتـا موزعة على إحدى عشر دور .

وبعـد تحديـد الموضـوع , قـام باختيـار البحر الشعري والقافية , وقد اختار البحر الشـعري السـريع اختيـارا يتناسـب مع القافية أولا , ثم تناسـبه مـع اللغة والفكرة الجمالية .

ومـن الموضوع الجمالـي , والبحر , اختار لغـة القصيدة اختيـارا محكما يتلاءم , مع فكـرة البعث العربي , وما يلازمها من شـك ويقيـن , أو مـا يلازمهـا مـن مفاهيـم تقوم علـى القضاء والقـدر أو على فكـرة القدر والاختيـار وعلـى لغة تضعك بين الشـك واليقين وبين الإمكانية والواقع , والضرورة والصدفـة , فليـس مـن المسـتحيل قيام الثـورة العربيـة الكبـرى أولا ضـد الدولة العثمانيـة , التـي كانت تجعـل العرب [و الأمـم العربية] امة مسـتعبدة لا تقول إلا بقـول المسـتبد العثماني فقـد كانت من المستحيل تلك الثورة العربية الكبرى .

لكن هـذه الثورة العربية الكبرى , جأت من المحـال , أي مـن الليبراليـة الإنجليزية , فكيف التقى الميلاد والمحشر ...؟

مـن القوميـة الليبراليـة , قامـت الثـورة العربية الكبرى , فانفجرت ضد العثمانين , وضد الاسـتعمار بقيادة عزالدين القسام , وبقيـادة يوسـف العظمـة او بقيـادة حركـة التحـرر العربيـة بشـقيها القومي والماركسي .

وهذا الانفجار هـو الثورة ضد عنف الردى الذي هو الاستعمار البريطاني والفرنسي وسياسـة لانتـداب , وهـذا الـكلام ينطبق على الثورة اليمنية بقيـادة حركة التحرر القومية والماركسية معا .

ومنـذ ثورة القسـام , والصـراع يجري دما و نجيعـا إلـى أن أنهـوا زمن الاسـتعمار , ولكنهم لم ينهوا زمن الاستيطان ..؟

لكـن الاسـتعمار لم يكـن بحاجـة إلى من ينهيه فقـد كانت عوامل انهياره كامنة فيه كما تقول البيتان الأخيرتان :

انهوا زمانا تحت موضاته
ينهار لا ينسى ولا يذكر
كانوا صراعا بالنجيع أرتوى
روى , إلى أن أغصن الخنجر

زوال الاسـتعمار كان بسـبب سياسـة الحداثة الغربيـة أو [الموضات] الثورية لكن الاستعمار استبدل وجوده الاستعمار القديم بالاسـتعمار الحديـث القائم على نهـب الثـروات العربيـة , نهبـا بـلا حدود وعلى ركيـزة البترودولار , كمـا يقول ذلك الدكتور فؤاد زكريا رحمه الله .

القصيـدة محكومة بمنهج شـعري عربي عتيد , والشاعر يسـتخدم أسلوبا جديدا علـى موضوعـه , فهو يخلع علـى انبعاث حركة التحرر اليمنية والعربية , لغة قدرية وابرزها عوامـل الزمن , ومظاهـر الطبيعة والمواسـم الخصبة , او فصول السنة أنها فكـرة البعث القدريـة , التي تجـري على مجالات الحيـاة في الطبيعـة والمجتمع والفكر ويجري ذلك علـى حركة المقاومة اليمنية والعربية والأممية .

الشرح والتفسير :

القصيدة أية من آيات البردوني الشـعرية , وتقوم على أسـلوب بلاغـي بديع ولبيان هذا الأسـلوب البلاغـي البديع لا بد من أن نقف عند بعـض أبيات القصيـدة وبعض أدوارهـا , بيتا , بيتا , أو دورا , دورا , حسـب مـا يقتضيه السـياق , فمن مبـدأ التعليل كعنصر بلاغي , تنطلق القصيدة هكذا :

لأنهـم مـن دمهـم ابحـروا كالصبح من توريدهم أسفروا

اللام التـي تنطلق بها أول بيت أو المدخل الشـعري , الأول او الدور الأول , وهو مكون مـن أربعـة أبيـات , هـذه الـلام التعليلية , عنصـر بلاغـي لبيـان حقيقـة الجماعـة الصاعدة من الدم .

والدم يعني الجذور , أو الأصول أو الطبيعة التي يتحـدد عليها الموقـف الإجتماعي يمنينا كان أو عربيا أو أمميا وسـواء كانت جماعة نضالية صغرى أو جماعة كبرى ,

والإبحـار يعنـي البدايـة , والتشـبيه [كالصبح] يفيـد ذلـك والتوريـد مجـاز , ويعنـي الصفـة للإسـفار , أو قـد يكـون تصريـف للوريـد الـذي يتدفق منـه الدم – والإسـفار الوضـوح الـذي هـو عكـس الغمـوض والبيـت يقـف علـى تاريـخ المعينيـن , فمـن التاريـخ اليمنـي يمنح الشاعر منطقه الجمالي :

تكسروا ذات خريف هنا
والآن من اشلائهم ازهروا
وقبل أعلان الشذى , حدقوا
وعن سداد الرؤية استبصروا
تجمروا في ذكريات الحصى
ومن حنين التربة أخضوضروا

الفكر و الازدهار يناظران الخريف والربيع وهو هنـا يماثل ضمور الحضـارة القديمة , ثـم انبعاثهـا واعـلان الشـذى كناية عن خصوبـة الربيـع وحدقـوا , مجـاز يعنـي أبصروا إلى ما حولهم تفسرها قافية البيت [اسـتبصروا] وأما سـداد الرؤية , فكناية عن صـواب الرؤيـة ودقة التفكيـر , فهم لا يفكروا بغير عقولهم ولا يسـتعيرون أفكار غير واقعية , بل اسـتعملوا عقولهم بأفكار سليمة نابعة من حياتهم .

(تجمـروا) , تعنـي توقـدت أفكارهـم , من ذكريـات الغروب الحضـاري , أو الجدب , فذكريات الحصـى كناية عن الجدب , أمـا حنين التربة فكناية عن نشـاطهم الزراعي الناجم عن دقة الرؤية وسداد الفكر والاخضـرار كناية عن تجددهم أو عن نشاطهم الزراعي .

فـأن الإخضـرار , يفيـد تماثـل الإنسـان ببيئتـه أو تأثيـر الارض على كائناتها :

هناك رفوا , ها هنا اعشبوا
هـل تضجـر الامـواج كـي يضجروا
مرة اخرى يماثل الشـاعر اليمنييـن , بظواهـر طبيعيـة , فكما أعشـبوا هنـا في أرضهـم , ايضا منحـوا العالم رفيفهم , وكان ذلـك دأبهـم وديدنهـم , بـدون كلل أو ملـل , مثل امـواج البحر التي لاتـكل ولا تمل من المد والجزر .

من كل شبر أبرقو , اشرقوا
كيف التقى الميلاد والمحشر

الميـلاد بدايـات الحضـارة اليمنيـة التي نشـروها فـي العالم , كمـا يقـول التاريخ وكمـا مـلأوا الدنيـا بأمجادهـم كما يصف ذلـك الشـهيد محمـد محمـود الزبيـري فـي قصيدتـه [صرخـة إلـى النائميـن] كذلك هـم اليـوم مـلأوا الدنيـا بانبعاثهم الحضاري الجديد وتحررهم من الاستبداد والاسـتعمار , والمحشـر حالة من حالات نهوض المقاومين الثوريين :

كيف هموا لونا ..سنى ...؟ كيف من
تحت الشظايا والحصى أمطروا

البيـت تبحث لا عـن انبعاثهـم التحرري فهذا مسألة يقينية , لكن كيف تم لهم ذلك والمسـألة هنـا قدريـة , تبحـث ليس فقط عن حقيقة البعث بـل كيفيتـه , كمـا سـأل إبراهيـم ربه: [ربي ارني كيـف تحيـي الموتى ... قـال أو لـم تؤمـن , قال بلى , ولكـن ليطمئن قلبـي] والسـياق يفسـر بعـث حركة المقاومين الثورية آن ذاك :

ماذا يقـص التل للمنحنى ...؟
عنهـم ويـروي الحقل والبيدر
وكيـف تحكـي الـدار أخبارهم
ويستعيد القصة المهجر ...؟

هـذا الـدور الثالـث مـن القصيـدة يقـوم على الاسـتفهام أصلا , فلهؤلاء المقامين الثوريين , أو الثوار الديمقراطيين , قصص يقـال عنهم , عند أهل الجبال والسـفوح , وتـروى عنهم روايـات عند أهـل الحقول والبيادر وفي المدن والقرى .

وتحكي الدار أخبارهم , والمهاجر تستعيد هذه القصص والحكايـات والروايات , لكن اي نوع من هذه القصص والأقاويل , أو أي روايات وحكايات تحكـي عنهم وتروى ..؟ وتفسـر أخبارهم , وكيف ..؟ هذا ما يريد الشـاعر أن يعرفه , مـاذا قالـوا عنهم ....؟ وكيف ...؟الجواب عن ذلك يأتي في الدور الرابع :

ناموا شظايا او أنجم في الثرى
وقبل إسحار الدجى اسحروا

مؤقتـا غابـوا لكـي يبزغوا
كي يشمسوا من بعدما أقمروا
عادوا إلى أوراقهم , أورقوا
منها ....ومن أشجارهم أثمروا

هـذا الـدور الرابع يقـوم على السـرد , كما نلاحظ ذلك في الأفعال , ناموا , و أسـحروا ثـم غابـوا , وبزغـوا , ثـم عـادوا , وأورقـوا وأثمروا .....الخ الخ .

وهذا السـرد , أو الاخبار المسـرودة عنهم ممهورة بالتعليل والتشبيه .

فهـم لم يموتوا , ولـم ينتهـوا , و أنما عادوا إلـى أصولهـم [أوراقهـم] أو إلى فروعهم كي يثمروا .

لقـد ناموا نومـة العامل أو الفـلاح بعد يوم عمـل , أو بدايـة نشـاط ثـوري جديد هذا النوم اسـتراحة لمعاودة نشـاطهم , وكان أسـحارهم قبل أسـحار الدجى بداية يوم عمل جديد .

فمـا ناموا إلا لكـي ينهضوا نهوضـا ثوريا متعـدد الأوجه , أو هو نشـاط مادي مركب مـن العمـل المدنـي والعمل الزراعـي .... الخ .

وجملة [شظايا نجم في الثرى] حال من تفرقهـم كما تتفرق النجوم أو تتنشـظى إلـى شـظايا ونتسـكن الثـرى فتأخذ نصيبها من الراحة [تبرد] لكي تعاود النشـاط المـادي المركـب , أو هـذا النوم الذي يسـبق الأسحار لمعاودة النشاط الثوري ...

والبيت الذي يخبر عن نومهم , كما تنـام شـظايا النجوم , يقـوم على التشبيه وتشبيه مضمر الأداة .

وهم لـم يغيبوا عن منصة المسـرح أو عن منصـة التمثيل إلا لكي يبزغوا , لقـد غابـوا كما تغيب الشـمس لكي تعيـد اليوم دورتها , وهـذا البيت يقوم علـى التماثـل فالشـاعر يماثل المقاومين الثوريين بحركة القمر أولا , ثم بدورة الشمس , فهم لم يبزغوا , إلا لكي يشمسـوا , فكما إن البزوغ فعل للشـمس فـي بوابة النهار , فإن الاشـماس يفيد بها التجربة الثورية الأكثر إشراقا و بهاءا من تجربتهم الثورية الأولى , فثورة 14 أكتوبر مثلا كانـت أكثر بهـاءا من ثورة سـبتمبر , وثـورة حركة التحـرر الوطنـي والقومي , أكثـر وضوحـا مـن حركتـي النهضـة والإحياء .

أو قل أن ثورة سـبتمبر وأكتوبر كانتا أكثر أشراقا من ثورة الأحرار الشباطية .

أذن هـم لـم يموتـوا , بـل ناموا نومـة أهل الكهف , ولم يغيبوا غيبة المهدي المنتظر أو غيبة المسيح , بل غابوا غيبة الشمس .

وفـي هذه الغيبـة عادوا , إلـى [أوراقهم] أو إلـى تجربتهـم الأولى , وأعـادوا النظر فيها , ثم من تلـك التجربة الأولى انطلقوا لكي [يثمروا] أي لكي يرشحوا تجربتهم السياسـية والاجتماعيـة , بـل والثقافية , فـالأوراق مجـاز أو تورية لطيفـة , تعني أوراق الشـجر , كمـا تعني أدبيـات الثورة اليمنية الواحدة .

لكن المعنى أعمق من ذلك , فهم يمارسون تجربتهم الثورية بوعي سياسي و صادق , وبدرايـة محكمة , تذهل الآخرين , و أن لم يدرك هؤلاء الآخرون بصعودهم وهبوطهم , أو بغيابهم وشـروقهم , إنهـم المقاومون الثوريـون حماة الثـورة اليمنيـة , ودعاة العدل و التوحيد :

من حيث يدرون , ومن حيث لا
ندري , أخلوا , أذهلوا , أسكروا
لا شيء يدري , أي شيء يرى
وكيف أضحى غيره المنظر
تعدو إليهم كالصبايا الربى
يطير كالعصفورة المعبر
وكل كوخ يمتطي شوقه
وكل صخر فرس أشقر
وكل بستان يصيح :أقتطف
يا كل طاو , يا عطاش اعصروا

إذن هـؤلاء [الصاعدون مـن دمائهم] أو المقاومـون الثوريـون , أو أهـل العدل والتوحيـد , يمتلكـون درايـة تامـة بمـا يفعلـون , ولما يفعلـون , ومتى يفعلون ما يفعلـون , وكيف ...؟ ولا مثلهم في ذلـك إلا حركة الوجود التـي تجـري بحركـة منتظمة , وتـؤدي واجبهـا , وفـق واجـب الوجود .

أنهـم الحركـة المحكومـة بشـكلي الزمـان والمـكان مع فـارق واضـح , هـو أن حركـة الوجـود مسـيرة لا عقـل لها فيما تفعل , في حين أن حركة هؤلاء الصاعـدون من دمائهم , يفعلـون ما يفعلـون باختيار , أو بوعـي محكـم أنهـم ذرات الكائنات وأصلها .

فهـم يطلـون علـى الوجـود إطلالـة واعيـة , يدركونهـا , ولا يدركها الناس , والناس , يشاهدون غيابهم أو حضورهم مذهولين مما يشاهدون .

وكذلـك الأشـياء المحيطة بهـم , هي لا تـدري ولا تدرك أي شـيء فـي حضورهم المذهل بل والمسـكر [يـوم ترونها تذهل كل مرضعـة عمـا أرضعت وتضـع كل ذات حمـل حملها وتـرى الناس سـكارى , وما هم بسكارى , ولكن عذاب الله شديد] ...

فهـم يظهرون , فجأة , ويطلون بأشـكال جديـدة , أو يحضرون حضورا مسـرحيا ومشاهد جديدة , ومناظر مذهلة .

فالروابي , لا تسير إليهم سير الفلاح إلى حقلـه , ولا سـير الطفل إلى أمـه بل تقفز الروابـي إليهم قفز الصبايـا إلى أمهاتهم , والمعابـر تطير إليهم طيـران العصافير أنهم الإطلالة السبتمبرية , أو هم يشرقون كإشراقه الشمس الرائعة .

والأكواخ تمطر أشـواقها إليهم وتتحول الصخـور إلـى أفراس شـقراء اسـتجابة لحركتهم أنهم المخلصـون , أو المنقذون للجماهيـر ليـس من بؤسـها وعوزها , بل ومن ظلم الطغاة وقوانينهم الجائرة .

ومـع هـؤلاء الثورييـن , تزدهـر الأرض بالخيـرات وتنقلـب إلى موائد مبسـوطة لكل الجائعين وعصائر لكل عطشان .

أنهـم أبنـاء هـذا الأرض البسـطاء , كما تقول قصيدة [أحزان و إصرار] :

نحن هذي الأرض فيها نعتلي
وهي فينا عنفوان واشتعال

ويبقـى الدور محكومـا بالمجاز العقلي والمجاز التمثيلي , ولكنه المجاز البسيط فألوانه كناية عن أبناء الشـعب المعذبين يجـور الكومبرادور , والصخـور كناية عن أنـزوا الأرض لهـم , والبسـتان كنايـة عن اليمن الديمقراطي الواحد ....

يمن العدل والوحدة ويمن أبناء الطبقات الشعبية الكادحة رغم أنف الأعداء ...لكن من أين جأوا ..

من أين جاؤا ...كلهم أكدوا
مماتهم , عن سره أخبروا
وشكلوه بدعة , لونت
أشكالها الأوراق والسمر

أطلالـة مذهلـة ...فمن أيـن جأوا هؤلاء الثـوار فكل الناس , كانـوا قد أكدوا , ممات هـؤلاء الثـوار ...؟ لا بل إضافـة إلى قولهم يموتـون , أخبروا عن سـر موتهم ..واطروا علـى هـذه الأخبـار زخـارف مـن الأقوال الملونة فمن أين جأوا ..:؟

من أين جأوا ....كلهم أكدوا
مماتهم , عن سره أخبروا
قيل أنقضى عشرون عاما على
تمزيقهم , قيل أنقضت أشهر
وقال واد ...أصبحوا عنده
وقال سفح فوقه عسكروا
وقال نجم تحت عيني سروا
والفجر في أهدابهم يسهر
وقيل هبوا صحوة وانثنوا
كما يأتيه العاصف الأغبر
وقال بعض شاهدوا دفنهم
وقال بعض البعض لم يقبروا
قيل اختفوا يوما وقيل انطفوا
وقيل من حيث أنطفوا نوروا

الأبيـات أعلاه تسـرد جملة من الأخبار المتباينـة , عن هؤلاء الثـوار .. فمن يقول أنهـم ماتوا ...وهذا خبـر يدحضه الوادي الـذي أصبح الثوار عنـده , من جهة , ومن جهـة أخـرى ينفيـه السـفح بقولـه أنهم عسـكروا فوقـه , ويؤكـد أقـوال الـوادي والسـفح ذلك النجـم الذي تحـت عينيه سروا , وكان الفجر يسهر في أهدابهم .

وهنـاك أقـوال أخـرى تقول أنهـم هبوا هبـة ثوريـة فـي وقـت الضحـى , وشـبه هؤلاء المخبرون هيبتهـم بالغبار التائه [العجاجة] .

لكـن هنـاك أيضا من يدحض هـذا , فقد راى بعـض الناس أنهم دفنوا , و يأتي خبر أخر ليقولا بأنهم لم يقبروا ....

وقـال أخرون , أنهم أختفـوا تماما مثلما أختفـى عمر المختار , وكمـا أختفى , عز الدين القسام , أو كما أختفى حسن البناء , أو كما رحل عبدالله السلال وعبدالناصر , أو كمـا دفـن عبدالرقيـب عبدالوهـاب والعواضي وعلي حسـين القاضي وسالم عمـر صالـح , أو كمـا غـاب عبدالفتـاح أسـماعيل وسـالم ربيع علـي أو عبدالله باذيـب ...وغيرهمكالزبيـر والنعمـان وفيصل عبداللطيف .

لكـن هؤلاء الذين انطفوا , نوروا من حيث أنطفوا ....ثم يأتي الشـاعر فيقول غير ما قال كل أولئك المؤرخون والصحفيون ...

وقيل ذابوا ذرة ..ذرة
و الأرض في ذراتهم تكبر

هـذا القول يعني أنهـم دفنوا كالبذور التي تخرج منها سـبع سـنابل ...فهم ذرات الحيـاة أنهـم الشـهداء الذيـن دفنوا ولـم يقبـروا ...أو أنطفوا ولكنهم مـن حيـث انطفوا نـوروا , وبهـم كبرت الارض وزاد نماؤهـا [أنهـم أحياء عند ربهم يرزقون] .

أنهم شهداء الثورة ...أو قل هم الشهداء مـن المقاوميـن الثورييـن أو من ابطال ثورتـي سـبتمبر و أكتوبـر هـم الثـوار الحقيقون , وبقيـة القصيدة يؤكد ذلك .....